الرصافي مؤرخاً

مع نظرة خاصة لتأريخه للسيرة النبوية

الدكتور صفاء خلوصي

قد يستغرب الانسان لأول وهلة عندما يعلم أن الصفة الغالبة على الشاعر معروف الرصافي أنه كان مؤرخاً أكثر من أي شيء آخر ، فقد طغى التاريخ على كل جوانب حياته وعلى أكثر ما كتب من شعر ونثر ، وفيما تبقى من آثاره أرخ للحقبة التي عاش فيها ؛ ففي القسم الموسوم «بالتاريخيات» من ديوانه[1] خمسمائة بيت ونيف ، وهي مستهلة بقصيدته « ضلال التاريخ »[2] التي بوسعنا أن نعدها مقدمة لدراساته التاريخية الشعرية والنثرية جميعا ، وفيها يشك في صحة التاريخ وصدق تحرّيه . وضمت في هذه المجموعة قصائده : « جالينوس العرب أو أبو بكر الرازي » (١٥٤ بيتاً) و « الحرب في البحر أو وقعة توشيما بين الروس واليابان » (٤٠ بيتا) و « هولاكو والمستعصم » (٦٧ بيتا) وفيها يتهم الوزير العلقمي بالخيانة لسيده الخليفة ، ويذكر أن « الطوسي » هو الذي أفتى بقتله ؛ و « أبو دلامة والمستقبل » (٦٦ بيتا) وفيها يبدو الرصافي أكبر مناصر للسلم ضد الحرب ودعاتها ، و « أطلال العلم أو المدرسة

---

(١) ديوان الرصافي بجزأين ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، ١٩٥٧ .

(٢) ج ٢ ص ٣٥٦ـ٣٥٨ وعدة أبيات القصدة ٤٠ بيتا ويبدو أنه أسقط منها بعض أبيات لانه ورد في موضعين من القصيدة عبارة : « ومنها » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النظامية في بغداد » (٢٢ بيتا) و « في سلانيك »(٦١ بيتا) وتدور حـول زحف جيش سلانيك بقيادة محمود شوكت باشا الذي أصبح فيما بعد الصدر الاعظـم أو رئيس الوزراء للدولة العثمانية بعد أن قمع حـركة ٣١ آذار (مارس) ١٩٠٨ وخلع السلطان عبد الحميد الثاني ، ويبدو أن الرصافي كان برفقة الجيش الزاحف بدليل قوله :

أتينـا دار قسطنطينَ صُبحاً وقد فُتحت لهم فتحاً مبينا

ثم إنه كان صديقا لمحمود شوكت باشا ولأخيه حكمت سليمان الذي أصبح فيما بعد أحد رؤساء الوزارات العراقية ، في الفترة المعروفة بانقلاب بكر صدقي العسكري (١٩٣٦ ــ ١٩٣٧) .

وهناك قصيدته « وقفة عند يلدز » (٤٧ بيتاً) وفيها نقد لعبد الحميد وحكمه ، وعلى غرارها « تموز الحرية » (٢٦ بيتاً) ، وتختم المجمـوعة بقصيدة « المجلس العمومي » (٣٥ بيتاً) وعين القلادة فيها قوله :

قد أصبح الأمر شورى بيننا فبهِ على الرعيـة لا يستأثر الملـك

وهو ما كان يؤمـن به الرصافي فقد كان ديموقراطياً شورویاً محباً للحرية . وقد أخطأ جامعو الديوان حين أدرجوا مقطوعة «يوم العروس»[٣] في هذه المجموعة لأنها قيلت في الأمير عبد الإله يوم دخل الانكليز العراق على أثر انهيار حركة أيار (مايو) ١٩٤١ التي قام بها رشيد عالي الكيلاني، واذا صحّ أن نُدخل هذه المقطوعة في « التاريخيات » على أساس أنها جزء من تاريخ العراق الحديث وجـب علينا أن ندخل مجمـوعة من مراثيه وأماديحه وما أدرج «في باب السياسيات» في « قسم التاريخيات » فمن

(٣) ج ٢ ص ٣٩٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك مثلا مراثيه لعبد المحسن السعدون[٤] : « ميتة البطل الأكبر »[٥] ورثاؤه للملك حسين بن علي[٦] وفيصل الاول[٧] ومعظم « سياسياته » من نحو « ما هكذا »[٨] و «في ليلة نابغية»[٩] و«عند سياحة السلطان»[١٠] وحتى بعض ما أدرج في باب « الحريقيات »[١١] و « الحربيات »[١٢].

وأرّخ الرصافي للطبقة المظلومة المحرومة في قصائده « أم اليتيم »[١٣] و « السجن في بغداد »[١٤] و « المطلقة »[١٥] و « اليتيم في العيد »[١٦].

وأرّخ للسياسة العراقية في قصائده المعارضة لنظام الحكم يومذاك، وفي محاضر جلسات المجلس النيابي يوم كان نائباً لثماني سنوات ، وكان قد أرّخ للحكم العثماني ــ كما أسلفنا ــ في أواخر أيام الامبراطورية .

وعندما ارتأى لنفسه النفي الاختياري في الفلّوجة أصبح مؤرخاً من مؤرخي السيرة النبـــوية إذ عكف على وضـــع كتابه : « الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس » . وقد كان الرصافي على مذهب المتصوفة، لذلك فإن الكتاب لايخلو من شطحات صـــوفية ، ومهما اختلفنا معه في

---

(٤) كان من أخص أصدقائه وأحبهم اليه وهو الذي حاول المصالحة بينه وبين الملك فيصل .
(٥) ج ٢ ص ٣١٨ـ٣١٩ و ٣٢٠ ـ ٣٢٣ و « ذكرى فتى السعدون » ج ٢ ص ٣٢٤ـ٣٢٦ .
(٦) ج ٢ ص ٣٢٨ .
(٧) ج ٢ ص ٣٣٤ .
(٨) ج ٢ ص ٤٠٢ـ٤٠٥ .
(٩) ج ٢ ص ٤٠٥ـ٤٠٧ .
(١٠) ج ٢ ص ٤١١ـ٤١٣ .
(١١) ج ١ ص ٢٨٨ـ٢٩٣ .
(١٢) ج ٢ ص ٤٧٨ـ٤٩٧ .
(١٣) ج ١ ص ٣٩ .
(١٤) ج ١ ص ٤٢ .
(١٥) ج ١ ص ٥٤ .
(١٦) ج ١ ص ٥٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرأي حول نقاط معينة فإن الكتاب حري بالدراسة وابداء الرأي والنقد فيه ، فليس ثمة انسان مهما كان عظيماً يعلو فوق النقد أو يسمو عليه .

لقد تمكنتُ من الحصول على نسخة « ميكروفيلم » كاملة لهـذا الكتاب وقضيت نحواً من ستة أشهر في دراسته بمكتبة المتحف البريطاني بلندن سنة ١٩٧٢ ودونتُ بعض الملاحظات والتعليقات على هوامش هذا الكتاب الذي طال حوله الجدل .

ولستُ ممن يؤمنون باخفاء الأمور لمجرد إشاعات قد تكون حقيقية أو باطلة ، بل إنني أحب الصراحة ، ولاسيما في القضايا العلمية الاكاديمية والبحث في مخطوطة الرصافي هذه واحدة منها .

ليس من ينكر أن الرصافي كان ينزع نزعة صوفية ، وينحو منحى يسميه هو أو سواه « حراً » ، وأياً كان الأمر فإن الرصافي في هذا الكتاب لم يخل في طريقة بحثه كما قلنا من شطحات صوفية ، اذا جاز التعبير ، بل إنه يبدأ الكتاب بداية صوفية إذ يقول : « بسم الحقيقة المطلقة اللانهائية، حامداً لها ومصلياً ومسلماً عليها » .

يقع المخطوط في ١٣١٥ صفحة بحجم كراريس تمارين الطلبة الاعتيادية، والحق أنه دوّن في هذه الكراريس ووزع البحـث على ثلاثة وأربعين قسماً ، والنسخة التي بين يدينا هي نسخة المرحوم كامل الجادرجي منقولة عن النسخة الاصلية التي أودعها المؤلف في حينه عند صديقه محمـود السنوي ، وأكبر الظن أن السنوي أحـرق نسخته بعـد وفاة الرصافي ، ربما لأنه لم تعجبه النزعة الصوفية في البحث ، مع أن الرصافي نشأ ليكون متصوفاً على يد العلامة محمود شكري الآلوسي ، وكان يومئذ يعـرف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بسعروف بن عبد الغني ، فلقبه « بالرصافي » ليكون صنـــواً للمتصوف المشهور « معروف الكرخي » .

ومع أنني لا أذهب مع الرصافي في بعض ما ذهب اليه ولي اعتراضات على أسلوب بحثه ، فإن انطباعي الرئيسي عنه أنه لا يؤمن بالتاريخ بصورة عامة ، كما أسلفت ، لذلك جعل عنوان مقدمة المخطوط : « للحقيقة لا للتاريخ » وقد كان ، كما قلنا في مستهل بحثنا ، قد أفصح عن هذا الرأي في شعره فنثر ما كان قد نظمه ، بل تراجع في شعره ونثره عن بعض ما كان يؤمن به من صحة التاريخ وصدقه يوم قال :

وأكتب للتاريخ ما أنا كاتب ليجعله أحدوثةً كلُّ مخبِرِ

وعذره في ذلك أن « الايام تنضج المرء بحوادثها فيستحيل من حال الى حال ، وينتقل من طور الى طور ، وكذلك فعلت بي الايام ، حتـــى أصبحتُ لا أقيم للتاريخ وزناً ، ولا أحسب له حساباً ، لأني رأيته بيت الكذب ، ومُناخ الضلال ، ومستجمع أهواء الناس . اذا نظرت فيه كنت كأني منه في كثيب من فيض رمال الاباطيل قد تغلغلت فيها ذرات ضئيلة من شذور الحقيقة ، فيتعذر أو يتعسر على المرء أن يستخلص من طـــين أباطيله ذرات شذور الحقيقة » .

لقد هاجم الرصافي التاريخ والمؤرخين ، بما فيهم هو نفسه ، ومن ساواك بنفسه ما ظلمك ، لأن التاريخ لا يخلو من نزعات ذاتية وأغراض فردية ، وتوهم مقصود أو غير مقصود لأشياء غير موجودة ، وفي هـــذا يقول في قصيدته « ضلال التاريخ » :

وما كتب التاريخ في كل ماروت لقـــرّائها إلا حديـــثٌ ملفّقُ
نظرنا لأمـــر الحاضـــرين فرابنـــا فكيف بأمـــر الغابرين نصـــدق ؟

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما صدقتنا في الحقـائق أعـينٌ فكيف إذن فيهن يصدقُ مهرق(١٧)
وهل قد خصصنا دون من كان قبلنا بخبث السجايا ، شدَّ ما تتحمَّق!

فالرصافي اذن يحاول أن يتحرى الحقيقة ، ولا يزعمُ أنه مفلحٌ في التوصل إليها ، فقد يكون كل ما يذكره في كتابه أوهاماً مجددة ، لذلك يسبق القارىء الى هذه الناحية فيقول :

« فإن قلت أيها القارىء الكريم : من يضمن لك أنك تُرضي الحقيقة، وهل رضاها عنك فيما كتبتَهُ هنـا إلا دعوى مجـددة لا تقوم إلا فيما تزعمه أنت ؟ قلت : كفى بحرية الفكر ضامناً الى رضاها ، وما عليَّ في نجاح هذه الدعوى مني وهدفها إلا أن أفكر حراً وأكتب حراً ، فإن أحبَّتْ ما أردته لها فقد أرضيتُها ، وإن أخطأتُ فلي ما يعذرني عندها من أنني لا أقصد إلا رضاها ، ولا أنحاز إلا الى جانبها ، ولا أتحرى إلا الوصول إليها ، واذا كنتُ لا أتبع هوى النفس فيما أكتب عنها ، فما أنا بمسؤول عما لا طاقة لي به منها » .

وهو لا يبالي بسخط الناس ورضاهم ما دام لا يبغي فيما يكتبه غير رضى الحقيقة ، ويدعم قوله هذا ببيت من ديوانه :

لعمرك إنَّ الحـرَّ لا يتقيَّـدُ ألا فليقل ما شاءَ فيَّ المفنِّد(١٨)

وإنه مستعد لتحمل الأذى في سبيل الحقيقة مادام حياً ، وإن كان ميتاً فلا يناله « من سبابهم ضير ، كما لاينالهم منه خير ، فإن سبَّ الميت

(١٧) جاء في هامش الديوان ص ٣٥٧ هـ ٢ : « المهرق نوع خاص من الصحف كانوا يكتبون عليه كتب المعاهدات ونحوها .

(١٨) الديوان : ١/٧٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لا يؤذي الحيَّ ، ولايضر الميت ، كما قال محمد بن عبد الله عظيم عظماء البشـــر » .

هذا ما جاء على لسان الرصافي بالضبط في المقـدمة التي كتبها في الفلّوجة يوم ٥ تموز (يوليه) سنة ١٩٣٣ فهـو يؤمن مخلصاً أن محمداً ﷺ كان عظيم عظماء البشر .

وهو يعتقد أن من أعظم معجزات الرسول ﷺ أن العرب « قـد دوّخوا البلاد من أقصى الشرق الى أقصى الغرب في مدة لا تزيد على ثلاثين سنة » ثم يرفع عقيرته قائلا : « انظر الى هذه النهضـة وآثارها الباهرة ، فإنها معجزة المعجزات التي لم يسبق لها نظير في البشر ، منـذ عُرِف التاريخ الى يومنا هذا .

والغاية التي يرمي إليها محمد ﷺ إحـداث نهضة عربية دينيـة اجتماعية سياسية ، تكون عربية المبتدأ عالمية المنتهى ، أي يقوم بها العرب في بدء الامر » .

وقد تكررت هذه العبارات في المخطوطة أكثر من مرة ، ويبدو أن الظاهرة الإعجازية قد تحققت الى حد بعيد في التاريخ ، ثم ركدت ، وهاهي ذي اليوم تبتعث من جديد ، ولعلها في هذه المرة ستعم البسيطة أجمـع ويكون العرب قادة الدنيا وزعماءها الموجّهين .

وقد كان بودنا لو أن الرصافي أتيحت له الفرصة فأعاد النظر في كتابه هذا الذي كان هدفه الاول والاخير في حيـاته وقد استغرق تأليفه عدة سنوات من العزلة والانفراد ، فهو مؤلف على الطريقة الجاحظية من حيث الاستطرادات والجمـل الاعتراضية والملاحظات والتنبيهـات والمسائل والملاحق الخ ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقد كان بوسعه أن يتبع الطريقة العصرية في التأليف فيضع ما لم يكن من صلب النص في حواش وهوامش ، وملاحق في آخر الكتاب ، وقد لاحظنا أنه اذا ماطال الاستطراد عنده غيَّر الموضوع موقتاً ليعود إليه فيما بعد ، تحت عنوان (تكملة) .

ولم يذكر الرصافي ثبتاً بالمصادر والمراجع ، مع أننا أحصينا في ثنايا الكتاب ما لايقل عن خمسة وثلاثين مصدراً من دون أن يذكر تاريخ طبعها أو مكانه ، وهي حسب ترتيب ذكرها في المخطوط كما يلي :

(١) سيرة ابن هشام .
(٢) السيرة الحلبية .
(٣) معجم البلدان لياقوت .
(٤) الحافظ ابن حجر : « لذة العيش في طرق حديث : الأئمة من قريـش » .
(٥) ابن القيِّم : « زاد المعاد » .
(٦) سيرة الحافظ الدمياطي .
(٧) الزمخشري : « الكشّاف في تفسير القرآن » .
(٨) الحاكم : « المستدرك » .
(٩) ابن عساكر : « تاريخ دمشق » .
(١٠) المقريزي : « الإمتاع » .
(١١) ابن الصبّاغ « الفصول المهمة » .
(١٢) الطبراني :
(ا) المعجم الكبير .
(ب) المعجم الاوسط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(١٣) سيرة مغلطاي بن قليج[١٩] .

(١٤) ابن عبد البر[٢٠] : « الاستيعاب في معرفة الاصحاب » .

(١٥) الفخر الرازي « كتاب الإشارات » .

(١٦) الشافعي : « الأم » .

(١٧) جلال السيوطي :

(ا) الخصائص الصغرى

(ب) كتاب من غيَّر رسول الله اسمه

(جـ) الجامع الصغير

(د) الإتقان في علوم القرآن

(هـ) تاريخ الخلفاء

(و) الدر المنثور

(١٨) صحيح البخاري[٢١] .

(١٩) سنن الترمذي[٢٢] .

---

(١٩) هو علاء الدين مغلطاي (ت ٧٦٢ هـ / ١٣٦١ م) محدث ومؤرخ ونسابة تركي الاصل مصري المنشأ . من تآليفه « الاشارة أو السيرة النبوية » وهو الكتاب الذي استعان به الرصافي في تأليفه و « الواضح المبين في من استشهد من المحبين » .

(٢٠) يوسف بن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) فقيه مالكي ولد في قرطبة وتوفي في شاطبة . برع في الحديث والرواية حتى عـرف بحافظ المغـرب . كان أعلم محـدثي زمانه في أسماء الصـحابة .

(٢١) محمد بن اسماعيل الجعفي البخاري (١٩٤ـ٢٥٦ هـ) .. محدث وحافظ وفقيه ومؤرخ ومن كتبه الجامع الكبير والمسند الكبير والتاريخ في تراجم رجال الاسناد والحديث والجامع الصحيح الذي شرحه العسقلاني .

(٢٢) أبو عيسى محمد بن عيسى أحد أصحاب السنن (٨١٥ـ٨٩٢ م) ولد ضريرا بترمذ تقرب بلخ . أهم مؤلفاته : (العلل) و (السنن) في الحديث ، ويمكن تسميته بالجامع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢٠) سنن النسائي[٢٣] .

(٢١) عبد الوهاب الشعراني[٢٤] (ويعرف بالشعراوي أيضا) : « تفسير القرآن » .

(٢٢) النجار : « الخلفاء الراشدون »[٢٥] .

(٢٣) أحمد بن زيني دحلان[٢٦] : « السيرة الدحلانية » .

(٢٤) ابن الجوزي (من دون ذكر عنوان الكتاب)[٢٧] .

(٢٥) أبو العلاء المعري :

(ا) اللزوميات .

(ب) الفصول والغايات : ج ١ .

(٢٦) الجاحظ : « البيان والتبيين » .

(٢٧) تفسير عبد الرزاق[٢٨] .

وأضاف الرصافي الى مصادره التاريخية والدينية والادبية مصـادر

---

(٢٣) أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (٨٣٠-٩١٥ م) أحد أصحاب كتب الحديث الستة ولد بنسا بخراسان . أهم كتبه (السنن) وهو مقسم موضوعيا الى ٥١ قسما اختصره في (المجتبى) وشرحه السيوطي .

(٢٤) ت ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م وقف جهده على التصوف ، وله « الجواهر والدرر الكبرى » و « لواقح الانوار في طبقات السادة الاخيار » .

(٢٥) محب الدين بن النجار (١١٨٢-١٢٤٥ م) مؤرخ حافظ للحديث ، ولد في بغداد وتوفي فيها . درس على ابن الجوزي وقام بالتدريس في النظامية وله (ذيل تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي و (الدرة الثمينة في أخبار المدينة) .

(٢٦) أحمد بن زيني دحلان (١٨١٦-١٨٨٦ م) فقيه ومؤرخ وكان مفتي الشافعية وشيخ العلماء ، مولده في مكة ومثواه في المدينة ، أهم مؤلفاته في التاريخ : « الدول الاسلامية بالجداول المرضية » .

(٢٧) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي : فقيه حنبلي ألف في التاريخ والحديث . أهم كتبه : « المنتظم وملتقط الملتزم » .

(٢٨) لعله عبد الرزاق (كمال الدين بن اسحق السمرقندي) ١٤١٣-١٤٨٢ م ولد في هراة . مؤرخ ايراني وله « مطلع السعدين ومجمع البحرين » وفيه الاخبار المسلسلة من ١٣١٧ الى ١٤٧١ آخذا من مصادر مفقودة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أخرى في اللغة والعروض ، ويبدو أن أحبَّها إليه كتاب سيبويه ، واعتمد على ذاكرته في بعض القضايا ، وترك أخرى معترفاً بالتقصير لقلة ما كان لديه من مصادر في الفلوجة[٢٩] .

وهناك مصادر شفهية أو أشخاص تباحث معهم في أجزاء من الكتاب وأورد آراءهم ، وهم أربعة أشخاص نوردهم حســب ترتيب ذكرهم في الكتــاب :

(١) خليل طوطح[٣٠] الذي كان مديراً لمدرسة المعلمين في القــدس حيث قام الرصافي بأعباء تدريس الادب العربي في طريق عودته من الآستانة الى بغداد سنة ١٩٢١ وخليل طوطح من أسرة فلســطينية وقد تثقف في الولايات المتحدة الاميركية .

وقد تبينا فيما جاء في حديثه عن خليل طوطح أن فكرة تأليف الكتاب عنَّت له سنة ١٩٢٢ ولو أنه لم يستطع النهوض بأعبائها إلا بعد احدى عشرة سنة ، ويبدو أن السيرة النبوية شغلت ذهنه منذ حداثة سنّه ولم تبارح مخيلته طَوال حياته ، ومع أنه لم يغيِّر في الكتاب شيئاً خلال الاثنتي عشرة سنة التي أعقبــت الفراغ من وضــع الكتاب باستثناء أسطر أو صفحات حشيت هنا وهناك في فترات متباينة ، فقد تعمــد ترك فراغات لهذا الغــرض .

(٢) الدكتــور زكي مبارك[٣١] وقد قابله في الفلوجه عنــدما كان الدكتور أستاذاً بدار المعلمين ببغداد ، ودارت مناقشات حامية بينه وبين

---

(٢٩) المخطوطة : ص ٩ اذ يعتذر بقوله : « أنا اليوم عند كتابة هذا في منزل من الفلوجة منقطع عن وسائل البحث والتنقيب ، ليس لدي من الكتب ما أرجع اليه » .

(٣٠) نفسها : ص ٦٩ .

(٣١) نفسها : ص ٢٦٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الرصافي حول محتويات الكتاب ، ولا سيما فيما يتعلق باطلاع الرسول الكريم (ص) على ثقافة عصره .

(٣) حسن فهمي المدفعي[٣٢] الذي قدّم له بعض المعلومات عن اليهود السامريين وطقوسهم الدينية حصل عليها عندما كان ضابطاً في المدفعية العثمانية بنابلس أثناء الحرب العالمية الاولى .

(٤) نخلة زريق[٣٣] : كان زميلاً للرصافي في الكلية العربية بالقدس حيث قارن فكرة صلب المسيح في الاسلام والمسيحية .

وفي الكتاب نزعة روائية جدلية ونقد لبعض المصادر ، ولاسيما كتاب « الفصول والغايات » للمعري ، إذ أكد أن المعري أخفق في محاولته محاكاة القرآن ، كما أخفق شوقي في محاكاة ميمية البوصيري أي نهج البردة ، فقصيدة شوقي غير طبيعية ، كما أن لشوقي نفسه قصائد ليس بوسع البوصيري محاكاتها ولا بمقدوره أن يحلم بالوصول الى مستواها؛ ويشك الرصافي ، مع ذلك ، أن يكون المعري حاول محاكاة القرآن[٣٤] .

ورغم أن مؤلفنا ينتقد الحسن البصري فإنه يمتدح سعيد بن المسيب لأنه كان واسع التفكير .

وينتقد كتاب الدكتور حسين هيكل في السيرة النبوية لأنه ، على رأي الرصافي ، لم يأت بجديد .

وإني أتفق مع الرصافي تمام الاتفاق في أننا لا نستطيع اليوم في العالم

---

(٣٢) نفسها : ص ٦٧٣ .

(٣٣) نفسها : ص ١٠٣٩ .

(٣٤) نفسها : ص ٩٠٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العربي أن نكتـــب بالحرية التي كان يكتـــب بها أجـــدادنا في القرون الوسطى[٣٥] .

وينتقد الرصافي كتاب «الكشاف» للزمخشري وكذلك كتاب الباقلاني الموسوم بإعجاز القرآن ، ولم ينج المعتزلة و لا الخليفة المأمون من نقدات الرصافي ، بل انه ليضع المأمون على قائمة الشخصيات التاريخية التـــي حاسبها ووجه إليها نقداته اللاذعة ، كما أنه أنحى باللائمة على ابن هشام لاختصاره سيرة ابن اسحق .

وعالج المؤلف في كتابه هـــذا أسلوب القـــرآن[٣٦] ، فنثر القرآن في رأيه شيء خاص لا هو بالنثر ولا الشعر ، وهو مصيب في رأيه هذا .

وخلاصة الكتاب أن محمداً (ص) اندمج في الكون اندماجاً كلّياً حتى صار جزءاً منه ، وهذا جوهر فكرة وحدة الوجود عند المتصوفة من أمثال الرصافي .

لقد استطاع محمد (ص) أن يتحرر من فرديته ومن جزئيته ويكوّن كلاً كاملاً مع الكون أجمع ، فما كان يصدر من فمه في ساعات اندماجه الكلي بالكون هو كلام الله ؛ ولم ينكـــر الرصافي ـــ وحاشاه أن يفعل ذلك ـــ أن محمداً (ص) كان رسولاً يوحى إليه ، ولا جحد رسالته كما يزعم بعض الزاعمين من الذين لم يتعمقوا في دراسة المخطوطة حق الدراسة .

والأفضل لمن يقرأ المخطوط أن يقرأه مرتين كما فعلـــت أنا ، أو أن يقرأ القسم الثاني قبل الأول ليتبين ما يرمي اليه المؤلف وإلا أساء فهـــم الكتاب القائم على فكرة وحدة الوجود Monism .

---

(٣٥) نفسها : ص ٨٩٩ .

(٣٦) نفسها : ص ٨٣١ـ٨٣٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وربما عجز الرصافي في مستهل بحثه عن التعبير عن قصده ، ولكنه بلغ ما يريد على مراحل ولا سيما عندما وصل الى ختام الكتاب ، وفي هذا مصداق لما جاء في ديوانه :

ففي النفس ما أعيا العبارة كشفُه وقصَّر عن تبيانه النظم والنثرُ
وما كل مشعور به في نفوسنا قديرٌ على تبيانه المنطق الحرُّ
ويارُبَّ معنى دقَّ حتى تخاوصت إليه من الألفاظ أعينُها الخُزْرُ

وإليك رأي الرصافي الصريح في الرسول الكريم (ص) بالحرف الواحد :

« محمد ـ أعظم رجل عرفه التاريخ . أحدث في البشر أعظم انقلاب عام في الدين والسياسة والاجتماع ؛ وقد أوجد هذا الانقلاب بواسطة نهضة عربية المبتدا عالمية المنتهى[٣٧] بدلت مجرى الحياة الانسانية وحولتها الى ما هو أعلى مما كانت عليه قبلها ، حتى إن آثارها في قليل من الزمن عمَّت الشرق والغرب ؛ ولم تزل آثارها باقية الى يومنا هذا وستبقى الى ما شاء الله .

إن تلك الشخصية العظمى التي يمثلها شخص محمد بن عبد الله في بني آدم قد اجتمع فيها من عناصر الكمال البشري ما لم يعرف التاريخ اجتماعه في أحد قبله : عزم لايرده رادّ ، وتفكير عميق الغور ، بعيد المرمى ، وخيال واسع قويّ يكاد يعادل الحقيقة بقوته ، وطموح الى العلا لا يعلو عليه طموح .

هذه هي العناصر الاصلية التي تتكون منها شخصية محمد (ص)

(٣٧) المخطوطة : ص ٩٧٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أضف الى ذلك ما أوتيه من غزارة عقل وثقوب ذكاء[٣٨] » .

ورجل هذا رأيه في محمد (ص) خليق بالتقدير حتـــى وإن حاول أن يسلك سبيل وحدة الوجود لفهم ما أغلق عليه فهمه ، مادام بقي مسلماً حتى أخريات أيامه عندما كتب وصيته قائلا :

« أنا ولله الحمد مسلم مؤمن بالله ورسوله محمد بن عبد الله إيماناً صادقاً لا أرائي فيه ولا أداجي » .

ووقّع الوصية على الوجه التالي :

معروف الرصافي

المؤمن بالله وحده لا شريك له

لذلك ينبغي لنا حين نقرأ كتاب « الشخصية المحمدية أو حل اللغز المقدس » أن نضع وصيته ، وهي آخر ما كتبه ، نُصبَ أعيننا ، ثم نقرأ الجزء الاخير من الكتاب قبل أن نشرع بمستهلّه ، فقد يكون الرجل ، لعمق الفكرة التي كانت تجول في خلده عاجزاً بادىء ذي بدء عن التعبير الذي توصل اليه في النهاية .

ويبدو موقفه رائعاً حين يدحض كون « الفصول والغايات » للمعري مما يمكن أن يذكر على صعيد واحد مع القرآن الكريم فيقول : « وهذا المعري قيل إنه عارض القرآن في كتابه المسمى بالفصول والغايات (وقد طبع حديثاً في مصر جزء من هذا الكتاب) ،فلما اطلعتُ عليه قلت :

وأين الثريّا من يد المتناول ؟

---

(٣٨) وجاء في (ص ٢١ـ٢٢) من المخطوط ما يلي : « اذا نظرنا الى محمد (ص) بمنظار ما هو مأثور في كتب السير رأيناه في الذروة العليا من مقام الايثاريين ووجدناه قد ترفع بنفسه عن حطام الدنيا وزخرفها الفاني واحتقر الماديات كلها ونظر اليها نظر المقت والازدراء » هـ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقبل كل شيء إن أسلوب المعري في كتابه هذا أسلوب عام مبتذل وأسلوب القرآن أسلوب خاص مبتكر ، وكيف يعارض القرآن بكتاب جل ما فيه أن كاتبه جمع في عباراته شيئاً من غريب اللغة وطرفاً من أخبار العرب ومن اشتهر منهم بما يزين أو يشين ، وما اشتهر من خيولهم ونوقهم وشيئاً من أقوال النحاة ومصطلحاتهم في الشعر وأوزانه وقوافيه، الى غير ذلك من الامور التي يجدها في الكتب من أرادها على وجه أوسع وأنفع مما جاء به المعري في (الفصول والغايات) .

نعم ! إن المعري في كل ما قاله في كتابه هذا يرمي الى تنزيه الله وتقديسه وبيان ما له من عظمة وجبروت وما له من رحمة واسعة وغفران، وما له من قدرة عظيمة لا يعجزها المحال ولا تؤودها الثقال ، ولكنه يأتيك بهذا في مواضيع لا تناسبه ولا تلائمه ، وإليك فصلاً منه قاله في سعة رحمة الله وعفوه وغفرانه :

(لا آيس من رحمة الله ولو نظمتُ ذنوباً مثل الجبال سوءاً كأنهن نبات جميز ووضعتهن في عنقي الضعيفة كما ينظم صغار اللؤلؤ فيما طال من العقود ، ولو بنيتُ بيتاً من الجرائم أسود كبيت الشعر يلحق بأعنان السماء ويستقل عموده كاستقلال عمود الوضح ويمتد إطنابه في السهل والجبل كامتداد حبال الشمس لهَدَمَهُ عفوُ الله حتى لا يوجد له ظل من غير لباث) .

فأين هذا مما جاء في القرآن من قوله : « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم » .

فالمعري مسفٌ في كثير من كلامه الذي ضمنه هذا الكتاب ، وليس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هو كذلك في (لزومياته) التي كتبها بعد هذا الكتاب ، فإنك تراه محلقاً في تفكيره الى ذرى لا يصل اليها إلا الأفذاذ من المفكرين ؛ وإني أستبعد كل الاستبعاد أن يكون المعري قصد بكتابه هذا معارضة القرآن » .

وقد يدور بخلد بعضنا أن الرصافي ربما كان متأثراً في كتابه هـذا بالآراء التجديدية « لحزب الاتحاد والترقي » فهل كان الرصـافي منتمياً الى هذا الحزب أسوة بكثيرين من أصـدقائه في الآستانة ، وهـل كان ماسونياً على غرار محمد عبده وجمال الدين الافغاني لأن صديقه حكمت سليمان ــ على ما أيّد لي القاضـي لويد[٣٩] Judge Lloyd الذي مارس القضاء في العراق أيام الانتداب البريطاني ، كان ماسونياً بل إن فريقاً من كبار قادة حزب الاتحاد والترقي كانوا من الماسونيين .

لقد كان الرصافي متحرراً ومجدداً في آرائه السياسية والاجتماعية والدينية وأحكامه التاريخية ، ولربما أيّد الاتحاديين في بعـض آرائهم التجديدية ، ولكنه لم ينتم إليهم ، ولا انضم الى الماسونية لأنني لم أجد في دراساتي كلها ما يؤيد ذلك ، ثم أليس هو القائل :

للانكليز مطامع ببلادكم لاتنتهي إلا بأن تتبلشفوا

فالكتاب الذي بين أيدينا لم يقع تحت طائلة أي تأثير سوى التأثير التصوفي والتفكير الفردي الحر البحت .

وعندما قابلنا النشرة الانتقادية ، التي وزعها الشريف حسين بن علي

---

(٣٩) رأيته في لندن سنة ١٩٦٧ وكنت يومها أبحث في « دائرة الوثائق العامة » فأيّد لي هذه الحقيقة ، ولا أدري مدى صحتها ، وأنا أنقلها هنا بتحفظ لتكـون موضع دراسة الباحثين من بعدي ، ولا أستطيع الجزم بها لان حكمت سليمان اشتهر بميوله الاشتراكية وعرف بها ، ولو أن ملكة بريطانيا بعثت ببرقية تعزية بوفاته باعتبارها رئيسة المحفل الماسوني البريطاني .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بتاريخ ٢٥ شعبان ١٣٣٤ هـ[٤٠] على المسـلمين كافة والتي آخـذ فيها الاتحاديين على أمور خرقوا فيها التعاليم الاسلامية لم نجد شيئاً من ذلك في مخطوطة الرصافي . ولعله من المفيد أن نقتطف أجزاء من تلك النشرة التاريخية ليتيسر لنا تفهم هذه الناحية :

« كل يعلم بأن أول من اعترف بالدولة العلية مـن حكام المسلمين وأمرائهم أمراء مكة المكرمة رغبة منهم في جمع كلمة المسلمين وتحكيماً لصالح جامعتهم لتمسك سلاطينها من آل عثمان العظام طاب ثراهم وجعل دار الخلد مثواهم بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله صلوات الله عليه وتفانيهم في إنفاذ أحكامها ، ولنفس تلك الغاية السامية الرفيعة لا يزالون[٤١] الأمراء محافظين عليها فإني حملت بالعرب على العرب في سنة ألف وثلاثمائة وثمانية[٤٢] وعشرين لفك حصار أبها ومحافظة شرف الدولة بذاتي وفي السـنة التي عقبتها جرت عين هذه الحركة بالعرب على العرب تحت قيادة أحد أبنائي كما تشهد به الحالة الحاضـرة الى أن نشأت في الدولة جمعية الاتحـاد وتوصلت الى قبض إدارتها وكافة شؤونها ، مما كانت نتيجته انتقاصها من من الممالك ما قوض عظمتها ... وبخوضهم لها غمرات الحروب الحاضرة وإيقافهم بها اليوم موقف الهلكة ... كل هذا لمحض غايات معلومة ... تفطر قلوب مسلمي المعمورة ... فقد وصفت أحد[٤٣] صحفهم الموسومة بالاجتهاد الصادرة في دار السلطنة السنية سيرة صلوات الله عليه وسلامه

---

(٤٠) النسخة الاصلية محفوظة في أرشيفات معهد الدراسات الشرقية لجامعة درهام ، رقم ٤٥ (H 129 Box 101/17/4 AR)

(٤١) كذا في النص الاصلي والاصح « لايزال » تحاشيا للغة « اكلوني البراغيث ».

(٤٢) كذا في الاصل والصواب « ثمان » .

(٤٣) كذا في الاصل والصواب « احدى » .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بشرّ السير نسأل الله العافية ، وهذا بمرأى ومسمع مـــن وزير الدولة الأعظم وشيخ إسلامها وسائر علمائها ووزرائها وأعيان رجالها » .

فهل جاء كتاب الرصافي ياترى ردّ فعل لهذا الوضع المؤسف ؟ ولكنه مما لاشك فيه أنه هو الذي أيقظ فيه فكرة تأليف كتاب في السيرة النبوية .

وتمضي النشرة لتقول : « وشفعت هذه الخطوة بلغو[٤٤] قوله تعالى: « للذكر مثل حظ الأنثيين » فساوتهما في المـيراث[٤٥] وعززتهما بالطامة الكبرى وهي هدم أحد أركان الاسلام ... وهو صوم رمضان ، بالأمر بفطره على الجندي المقيم بالمدينة المنورة أو مكة المكرمة أو الشام مثلا بدعوى أن زميله الجندي الآخر يقاتل الروس ... لكن قد ظهر الخفـا وانكشف الغطا بأن الدولة أصبحت في يد أنور باشا وجمال باشا وطلعة بك يحكمون فيها بما يشـاؤون ويفعلون بها ما يريدون وأبسط دليل على صحة هذا ما ورد أخيراً لقاضي محكمة مكة الشرعية بأن يحكم بالشهادة التي تحررت في محكمته وبين يديه ولا يلتفت للشهادة التي يكتبها المسلمون فيما بينهم غير مبالين بما في آية البقرة » .

ورغم أن طلعت بك (أو طلعت باشا فيما بعد) كان أحـد تلامذة الرصافي في الآستانة فلا نعتقد أنه فعل ذلك بتأثير الرصافي أو أن الرصافي استوحى منه شيئاً من هذا القبيل إذ أننا لا نجد إشارة الى ذلك في الكتاب الذي بين أيدينا .

ومع أن الكتاب ليس النص الاصلي فأنا لا أشـك في أنه مطـابق

---

(٤٤) يقصد الغاء .

(٤٥) قام عبد الكريم قاسم بهذه الخطوة في العراق سنة ١٩٦١ فجاءت حكومة حزب البعث فابطلتها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للاصل إذ وجدتُ في ورقة ملحقة بالنسخة المصورة من دون أي رقم ، وبخط الرصافي ، من غير توقيعه ما يلي :

« تمام مقابلتي مع السيد ناظم حميد لثمان بقين من رجب الفرد سنة ستين وثلثمائة وألف يقابلها في التأريخ الميلادي منتصف شهر آب(٤٦) من سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وألف وذلك ببغداد في بيت السيد كامل الجادرجي » . هـ .

ولا يخلو الكتاب من بعض نقاط ضعف فمن ذلك مثلا أنه ينقل فقرات طوالاً من كتب السيرة ، على نحو ما فعل في بيعة العقبة الأولى والثانية(٤٧) وكان أحيانا يلخص فيقول مثلاً : « هذا ما لخصـــناه من ابن القيّم في زاد المعاد»(٤٨).

ومع أنه يخرج أحياناً عن موضوع « السيرة النبوية » الشريفة ، فإن استطراداته الطريفة تلقي أضواء على جوانب من حياته ومشاعره التي لانعرف عنها شيئاً من دون قراءة هذا المخطوط قراءة إمعان وتدبر ، كما أنها تبين سعة اطلاعه ، فمن ذلك مثلاً قوله :

(١) تصفق العرب اذا تعجبوا من أمر واستفظعوه ، لا للاستحسان كما عند أمم الغرب (ص ٤٨٥).

(٢) إن المسبية إذا سبيت حلّ وطؤها لسابيها بعد استبرائها (أي بعد الحيضة الاولى) وان كانت مزوجة (وهذا قول الشافعي) (ص٤٤٣).

---

(٤٦) أي أغسطس .

(٤٧) الصفحات ٣٤٢ـ٣٥١ .

(٤٨) ص ٤٣١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٣) مخيريق يهودي أسلم وقاتل مع رسول الله (ص) فقتل وأوصى بماله لمحمد ، وهو أول وقف في الاسلام (ص ٤٩٩) .

(٤) لولا التشيع لكانت إيران اليوم عربية[٤٩] .

(٥) لولا الفتوح ماكنا اليوم من أهل هذه البلاد (ص٣٤٧) .

(٦) أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نُهي عنه في نيف وسبعين آية قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصـرهم لقدير » (ص ٣٦١) مما يدل على أن الاسلام ونبيه محمداً كانا أميل للسلام والمهادنة منهما للحرب والقتال .

(٧) إن العباس كان مسلماً من أول الأمر وانه كان يكتم إسلامه . (ص ٣٥٥) « وهي نظرية للرصافي لو قيض للدهر أن يتقدم به فيجاهـر بها أمام العباسيين لنال بها أرفع مكانة » .

(٨) صغر النوى يدل على تمر يثرب (ص ٤٦٥) .

(٩) كانت له (ص) سبعة أفراس وستـة بغال وحماران ومن إبل الركوب ثلاثة وفرس يقال له المرتجز سمّي لحسن صهيله مأخوذ من الرجز الذي هو ضرب من الشعر (ص ٥٠٧) .

(١٠) كان محمد (ص) يصلي بين الحجر الاسود والركن اليماني فيكون وجهه الى الشام وتكون الكعبة بينه وبين الشام فكأنه جمع بين القبلتين : الكعبة وبيت المقدس (ص ٤٢٢) .

---

(٤٩) لا يمكننـا أن نوافق الرصافي على هذا الرأي لان ايران استردت شخصيتها القومية قبل أن يعلن الشاه اسماعيل الصفوي تشيعها ، ولم تعد عربية عندما حاول نادر شاه في النصف الاول من القرن الثامن عشر رفع الفوارق المذهبية وتقريبها من المذهب السني وكان هذا سببا من أسباب الثورات التي قامت بوجهه وانتهت باغتياله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(١١) كان اذا صلى يكثر من النظر الى السماء (ص ٤٢٨).

(١٢) رايته سوداء ولواؤه أبيض (ص ٤٥٨).

(١٣) إن مسيلمة [الكذاب] مهما كان فسلاً من الفسول فهو خير من طليحة الأسدي والأسود العنسي وسجاح(ص ٩٠٤) .

(١٤) انتصار محمـــد (ص) في بدر جدير بأن يعد من المعجزات (ص ٧٧٩).

(١٥) التاريخ مظلم في مسألة أبوة ابراهيم للعدنانية إذ ليس فيه بصيص نور يهتدي به الباحث الى الحقيقة (ص ٧٣٣) .

(١٦) عقد محمـــد (ص) لعبـــد الله بن جحش راية وسماه أمير المؤمنين (ص ٧٣٧) ولعله أول من سمّي بذلك .

(١٧) الزمخشري في نَصَبٍ من التفنن ... حتى انك لتـــرقّ له حين تراه يجهد نفسه تخيّلاً وينهك فكره إبعاداً في توجيه الفواصل ، خصوصاً في تقدير المحذوفات وتصوير المقدرات (ص ٨٤٩) .

(١٨) الفواصل هي قوام أسلوب القرآن (ص ٨٥٠) .

(١٩) أسماء السور ليست توقيفية أي ليست بتوقيف من النبي (ص) (ص ٨٥١) فسورة النمل كان يجب أن تسمى بسورة سليمان والبقـــرة بسورة الكرسي والنور بسورة الآداب الاجتماعية (ص ٨٥٢).

(٢٠) فواتح السُّور : إن السُّـــوَر التي افتتحت بهذه الحـــروف ٢٩ سورة بعدد حروف المعجم ولكن لم يذكر غير ١٤ منها (ص ٨٥٧) وهي الكاثرةلا المكثورة أي هي التي يكثر ورودها في اللغة (ص٨٥٨) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد أورد المرحوم كامل الجادرجي إيضاحاً عن النسخة الاصلية لكتاب (الشخصية المحمدية) جاء فيه :

« كنتُ أسمع أن الاستاذ معروف الرصافي ألّف كتاباً عن شخصية محمد (ص) ... فرغبتُ في الاطلاع عليه ، وبقيت أسعى لتحقيق تلك الرغبة ، غير أني لم أوفق ، رغم المواعيد التي وعدني بها أصدقائي الذين كانوا يتصلون بالأستاذ الرصافي وهو في مسـكنه في الفلوجة ــ إذ إن الأستاذ الرصافي كان اعتزل بغداد واتخذ الفلوجة مسكناً منذ مدة تزيد على السبع سنوات ــ فقررت أن أذهب بنفسي الى الفلوجة ، وأرجـو الأستاذ إعارتي الكتاب لقراءته ، فذهبتُ وقابلت الأستاذ هناك يوم ٢٧ مارت [مارس] ١٩٤١ ولما اطلعت على فهرس الكتاب أعجبتني مواضيعه فاستأذنت الأستاذ استنساخه ، فأذن لي بذلك ، وأعطاني قسماً من أجزائه وعقيب عودتي الى بغداد باشرت بتأريخ ١ـ مارت [مارس] ١٩٤١ باستنساخه فصادف بعد ذلك أن وقعت الحرب بين الحكومة العراقية والحـكومة البريطانيـة في أوائل مايس [مايو] ١٩٤١ فاضطرّ الأستاذ الى ترك الفلوجـة وإيداع كتبه ــ وبضمنها الأجـزاء الباقية مـن الكتاب ــ الى شخص يأتسنه خارج بغداد ، فسبّب ذلك فترة في الاستنساخ ، غير أن الأستاذ ، بعد أن عاد الى بغداد واستقر فيها ، واستعاد الاجزاء الباقية ، أودعها إليّ جميعاً للاحتفاظ بها كأمانة والاستمرار في الاستنساخ ، وحينئذ عدتفباشرت بنسخه كلما سنحت لي الفرصة حتى انتهيت منه بتاريخ٣١آب [أغسطس] ١٩٤١ ، وعلى هذا قد استغرق نسخ الكتاب خمسة أشهر. وقد رأيتُ من المستحسن أن أشير في هذه النسخة الى رقم الجزء الاصلي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

حيث يبدأ فوضعت رقمه بالخط الاحمر عند بداية كل جـزء من أجزاء النسخة الاصلية ، كما يلاحظ القارىء .

إن النسخة التي نقلت عنها هذا الكتاب هي نسخة المؤلف وقـد كتبت بخطه ــ كما قلتُ آنفاً ــ ورسـم الخط جليٌّ واضح لا يخامر القارىء الشك في قراءة كل كلمة من كلماتها ، والكتاب الأصلي يحتوي على ١٣١٥ صفحة بـ ٤٣ جزءاً . أما هذه النسخة فقد احتوت على ١١٥٤ صفحة بسبعة أجزاء ، لم يحتو الجزء السابع منها إلا على ٧٤ صفحة ، بينما كل جزء من الاجزاء الاخرى احتوى على ١٨٠ صفحة .

وقد علمت أنه لاتوجد نسخة كاملة منقولة عن الأصل غير هذه حتى الآن، إذ حاول عدد غير قليل من معارف المؤلف أن يستنسخوا الكتاب فباشروا به ، غير أنهم لم يكملوه . هذا ماعدا نسخة السيد مصطفى علي التـي استنسخها بخطه ، وقد سألتُه عنها ، فأخبرني بأنه وإن اعتنى باستنساخها وقابلها مع المؤلّف ولكنه أضاف أن النسخة لم تكملْ بعدُ ، إذ ينقصها شيء قليل من آخر الكتاب ؛ والحق يجب أن يقال إن هذه النسخة (وإن لم أكن اطلعت عليها) يقتضي أن تُعدّ نسخة صحيحة ــ إن لم تكن أصح نسخة ــ بالنظر الى أن السيد مصطفى علي من أخصّ أصدقاء المؤلّف ، ومـن المعجبين بشعره وأدبه ، وهو يعد من المتضلعين في اللغة العربية ، فمـن المستبعد أن تصدر منه أغلاط لغوية وغيرها في أثناء النقل » .

بغداد في ٣١ آب [أغسطس] ١٩٤١ التوقيع : كامل الجادرجي

كل هذا دليل على أن النسخة التي بين أيدينا يمكن الركون إليها الى حد بعيد ، وقد تعمدنا نقل ذلك بالحرف الواحد ليعلم القارىء بوجود أكثر من نسخة للمخطوط .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن الطريف أن نضيف هنا ما ذكره الرصافي عن الطريقة العلميـة التي اتبعها في تأليفه إذ اعتمد على الأحاديث والاخبار في كتب الحديـث والسيَر باحثاً بين ذراتها ــ كما يقول هو ــ عن الشذور الذهبية بنوع من التنقية ، وذلك بأن نضعها في غربال منسوج من القرآن ومن المعقول، ونغربلها ، فما بقي في الغربال أخذناه . وما سقط منه تركناه ونبذناه ، وإلا بقينا هكذا مشتتين حيارى ، مختلفين في ديننا ، متأخرين في دنيانا ، وأنا على يقين من أننا اذا غربلنا هذه الكتب بمثل هذا الغربال لم يبق لنا منها إلا شيء قليل ، أو كما قال شاعر البشر أبو العلاء المعرّي :

لو غُربِلَ الناسُ كيما يُعدَموا سقطاً لما تحصَّلَ شيءٌ في الغرابيل

ولم يكن الرصافي مؤرّخاً فحسب ، بل ناقداً لما يؤرّخ ويكتب ، فقد نقد العديد من المصادر التي جانبت الصـواب أو اندفعـت وراء الخرافات والأضاليل ، ووضع تحت مجهر الحق والانصاف العديد مـن الشخصيات المحدثة والقديمة ووفاها حقها ، وهو في نقده النثري أكثـر اعتدالا وأميل الى الروح الأكاديمية منه في نقده الشعري وهجائه أو حتى في شعره التاريخي .

وهو على العموم أشبه ما يكون في تجريحه ولذعاته الشعرية بالشاعر الانكليزي سوينبرن Swinburne (١٨٣٧ــ١٩٠٩)[٥٠] الذي عاصره

---

(٥٠) راجع ديوانه
Swinburne's Collected Poetical Works, 2, Vols., London, William Heinemann LTD, 1927
انظر بصورة خاصة هجاءه لقيصر روسيا ، ج ٢ ص ١٢٠٤ــ١٢٠٧ وقارنه بهجاء الرصافي لعبدالحميد الثاني في قصائده « في سلانيك » ج ٢ ص ٣٨٢ و « وقفة عند يلدز » ج ٢ ص ٣٨٥و « تمـوز الحرية » ج ٢ ص ٣٨٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لفترة من حياته وهجا قيصر روسيا وملك بروسيا وألهب ظهـــر البرلمان الانكليزي بسياط نقده ، وكلاهما كان أمير شعراء عصره وإن لم يُعتَرَف لهما بالإمارة ، وإنّما قدّم عليهما من هم أقل شأناً وأضأل مكانة منهما ، وكان كلاهما متحمّساً للروح القومية فقد تحمّس سوينبرن للدعوة الوطنية التي دعا إليها ماتسيني[٥١] وكلاهما كان مؤرخاً شعرياً للفترة التي عاصرها ولكن الرصافي فاق سوينبرن بتأريخه لفترات سبقت زمانه ، وقد كان الرصافي أعف لساناً في الهجاء من سوينبرن الذي لم يتورع أحيانا من استعمـــال التعابير المقذعة والالفاظ البذيئة .

اكسفورد : صفاء خلوصي
الاستاذ المتمرّس بجامعة بغداد
ورئيس المجلس الاسلامي التربوي في المملكة المتحدة

(٥١) الموسوعة العربية الميسرة ص ١٠٤٢ (القاهرة ، ١٩٦٥).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net